لكي تنتفع بقية الاشجار من ظلها . والملوك يجمعون نخبة شبان بلادهم ويعرضونهم للموت الزؤام لكي يحفظوا بدمهم راحة بلادهم. فان لم يكن في قصاص الانسان فائدة له كما في قتل القاتل المتعمد ففيه فائدة لكثيرين غيره . والاجتماع الانساني الذي هو جسم حيّ يدعو الى قطع العضو المصاب اذا كان في قطعه فائدة لبقية الاعضاء

وخلاصة ما تقدّم ان الجنون لا يخلص الجاني من العقاب فيعاقب المجنون كما يعاقب العاقل. وان العقاب واجب على مستحقه ولو لم ينله منه نفع

الخوف والشجاعة والجبانة

عرّف فلاسفة العرب الخوف بانه انفعال في النفس يعرض من توقّع مكروه وانتظار محذور. وقالوا ان الشجاعة تحدث متى كانت حركة النفس الغضبيّة معتدلة تطيع النفس العاقلة في ما تنشطه لها فلا تهيج في غير حينها ولا تحمى اكثر مما ينبغي لها[1]. وانها اي الشجاعة فضيلة متوسّطة بين رذيلتين احداها الجُبن والأخرى التهوّر. أما الجُبن فهو الخوف في ما لا ينبغي ان يخاف منه واما التهوّر فهو الاقدام على ما لا ينبغي أن يُقدَم عليه . والذين بحثوا في الخوف جعلوا بحثهم من الوجه الادبي فنظروا الى ما يجوز وما لا يجوز فيه ومعالجة النفس من دائه . او من الوجه الطبي فنظروا الى اعراضه ومداواة البدن من تأثيره . وقلّ من بحث فيه من الوجه العلميّ الفلسفيّ كما بحثوا في غيره من قوى النفس وانفعالاتها . وهذا سيكون وجه البحث معنا في هذه المقالة

الخوف انفعالٌ يصحّ تعريفه على اوجهٍ فإمّا ان يعرّف ببعض اسبابه كما عرفه فلاسفة العرب على ما ذكرنا وإمّا ان يُعرّف ببعض اعراضه كما يعرّفه الاطبّاء وإمّا ان يعرّف بنتائجه وعواقبه كما يعرّفه علماء الاخلاق . وهو معروف عند كل احدٍ بشهادة وجدانه فالخائف يشعر من نفسه بحالٍ مخصوصة لا يشعر بها عند زوال خوفه . واذا اشتدّت هذه الحال فيه ظهرت علاماتها عليه ظهورًا بيّنًا حتى طالما تفنن في وصفها حاذق الشعراء ومشاهير الخطباء واحسن تمثيلها فحول المصوّرين والمثّالين . ولولا ضيق المقام لاوردنا طرفًا من اقوالهم فيها على اننا نقتصر على الحقيقي منها . فالخوف انفعال ترتعد له الفرائص ويرتعش الجسد ويقشعرّ الجلد ويتصبب الشعرُ وتتخلخ

(١) جعل فلاسفة العرب قوى النفس ثلثًا القوّة الناطقة وآلتها التي تستعملها من البدن الدماغ. والقوة الشهوية وآلتها التي تستعملها من البدن الكبد. والقوة الغضبية وآلتها التي تستعملها من البدن القلب . انظر كتاب تهذيب الاخلاق للرازي. ولا يخفى ما بين قولهم هذا وقول المحدثين المختلفين من الاختلاف

جذورهُ وتفسو اصولهُ وتحملق العينان ويتّسع الناظران وترتجف اليدان وترتخيان وتفلُّ الرجلان وتطقطق الاسنان ويُعتقل اللسان ويصفرُّ الوجه وتكفهرُّ الجبهة وتضطرب السحنة ويخبس الصوت في الحنجرة وتجري على البدن قشعريرة كذوب الثلج من قنا العنق الى اخمص القدم ويخفق القلب خفوقًا شديدًا كانهُ يحاول شق الصدر والخروج منهُ وقد يكاد يقف عن الخفوق فيتضايق الخائف تضايقًا عظيمًا. هذه اكثر اعراض الرعب الشديد وهي تخف بخفتهِ وتزيد بازدياد شدتهِ حتى لقد تبطل حركة القلب فيغمى على الخائف ويندر ان يطول الاغماء فيقتل من هو فيهِ

وهذا الانفعال الشديد من الخوف والرعب وما يصحبهُ من الاعراض المذكورة يحدثان في الانسان على غير رضاهُ واختيارهِ فانهما مستقلاّن عن الارادة غير خاضعين لحكمها وانما يحدثان بفعل وانفعال في الجهاز العصبي يُعرَف عند علماء الفسيولوجيا بالفعل المنعكس. فكل الاعراض المذكورة افعال منعكسة سبق ذكرها في كتب القوم. وقد سمّاها ريبه الفرنسوي الذي اعتمدنا على قولهِ في كثير من هذه المقالة بالافعال المنعكسة الطبيعية. وانما قيّدها بالطبيعية ليخرج افعالاً أُخرى منعكسة وصفها وسمّاها بالافعال المنعكسة العقليّة. ولاظهار الفرق بين هذه الافعال وتلك نأتي بمثَل على كلٍّ منها. فمثال الفعل المنعكس الطبيعيّ اتساع بؤبؤ العين في الظلمة وتضيّقهُ في النور. فذلك لا بدَّ منهُ سواء ارادهُ الانسان او لم يردهُ عَلِمَهُ او لم يعلمهُ لانهُ يتوقّف على تاثير النور في بعض اعصاب العين. وبيانهُ انهُ اذا اصاب النور اطراف العصب البصري المعروفة بالشبكية اثّر فيها تاثيرًا ينتقل على ذلك العصب الى الدماغ حتى يصل الى عُقَدٍ فيهِ تسمّى الاجسام الرباعيّة. فتتاثر هذه العقد بما نُقِل اليها على العصب البصري وترُدُّ التاثير او تنعكسهُ على عصب آخر يقال لهُ العصب الثالث حتى توصلهُ الى قزحية العين (وهي ما تلوّن منها) فتنقبض بهِ القزحية وتضيّق البؤبؤ حتى تقلّل النور الداخل منهُ الى العين. وكذلك اذا قلّ النور على العين يتسع البؤبؤ بالفعل المنعكس المتقدم وصفهُ. كل ذلك والعقل بعيد عنهُ والارادة عاجزةٌ عن التعرُّض لهُ بتعطيل او إجراء. والاعتماد كلهُ على تأثر الاعصاب وعكسها التأثير من عصب حسّيّ كعصب البصر الى عصب حركيّ كالعصب المحرّك للقزحية حركة القبض والبسط. فهذا فعل منعكس مستقلٌّ عن الارادة تمام الاستقلال الاّ انهُ يوجد افعال منعكسة أُخرى تخضع لحكم الارادة بعض الخضوع ولكن استيفاء الكلام عليها ليس من غرضنا في هذه المقالة فلا نزيد على ما تقدم

ومثال الفعل المنعكس العقلي اختناد الجنديّ في ساعة القتال عند سمعهِ طنين الرصاص المطلق من البنادق. فاختناقهُ هذا فعل منعكس محضٌ لان الجندي يخفي حال سمعهِ الطنين

قبل ان يخطر له ان يحيد عن طريق الرصاصة . ولكن انحناءهُ لا يخلو من التعقُّل وذلك لأنَّ الطنين نفسهُ لا يحدث هذا الانحناء ولو كان اشدَّ من صوت الرصاص كثيرًا . فانحناء الجندي انما كان لما تقرَّر في ذهنهِ من ان الموت الأحمر كامنٌ وراء ذلك الطنين فلا يمرُّ باذنهِ حتى يكون ائتلاف الافكار قد نبَّه النفس الى احداث حركات الانحناء فتحدث قبل ان يفكِّر في الرصاصة المحدثة للطنين او يتروَّى في عاقبتها لو اصابتهُ او في طريق النجاة منها

ومثالهُ ايضًا ما يعتري الناظرين من الوجل والاضطراب عند حدوث امر وخيم العاقبة كما لو كان بهلوان يلعب على حبلٍ فانقطع الحبلُ به فجأةً فالناظرون يذعرون والناظرات يصرخنَ ويرتعدنَ والشديدات الانفعال منهنَّ يغمنَ مغشيًّا عليهنَّ . وذلك كلهُ يحدث من فعلٍ منعكسٍ غير مطاوعٍ للارادة . ولكن رؤية انقطاع الحبل لا تكفي لاحداثهِ مجرَّدةً عن التعقُّل اذ انقطاع الحبل لا يحدث شيئًا من تلك الافعال المنعكسة اذا حدث في احوال أُخَر وانما يحدثها اذا كان قد تقرَّر في النفس انهُ يفضي الى قتل انسان او نحو ذلك

فالفرق بين الفعل المنعكس الطبيعي والفعل المنعكس العقلي هو ان الاوَّل خالٍ من كل أثر للتعقُّل والادراك والثاني غير خالٍ من ذلك . فالاوَّل يحصل من التأثير الواقع على عصبٍ من اعصاب الحسِّ منعكسًا الى عصبٍ من اعصاب الحركة دون ان ينبِّه مركزًا من مراكز الادراك في الدماغ فالفعل فيهِ يكون بقدر التأثير . واما الثاني فيحصل من تأثيرٍ يقع على عصبٍ من اعصاب الحواس الخمس فينتقل الى الدماغ فينبه مراكز التعقُّل والادراك ثم ينعكس الى اعصاب الحركة . فالفعل فيهِ لا يتبع مقدار التأثير بخلاف الاوَّل

فاذا تأمَّلنا في خوف البشر وجدناهُ فعلاً منعكسًا عقليًّا محتويًا على امرين : الاوَّل انفعال في النفس يشعر بهِ الانسان وهو الشعور بالخوف والآخر افعال منعكسة طبيعيَّة حاصلة من اضطراب الجهاز العصبي بذلك الانفعال وامتداد اضطرابهِ الى جهاز الحركة وغيرهِ في البدن . فيحدث من امتدادهِ الى القلب تعطُّل نبضاتهِ في قومٍ وتزايد النبضان والخفقان في آخرين . ومن امتدادهِ الى العضلات ارتعادها وارتجافها . والى الغدد اللعابيَّة تعطلها عن افراز اللعاب . والى الامعاء انقباضها . والى الاوعية الدموية في الوجه انقباضها فيصفرُّ . والى الحدقة اتساعها . والى الجلد امتقاعها وجمودها . وقس على ذلك حدوث بقيَّة الاعراض التي سبق وصفها .

والخوف يشترك فيهِ الانسان وسائر الحيوان . والظاهر ان اكثر الحيوانات يختلف خوفها عن خوف الانسان في كونهِ لا يتضمَّن الانفعال الذي يشعر بهِ الانسان عند الخوف بل ينحصر على الفعل المنعكس الطبيعي المشار اليهِ آنفًا . فيكون الاشتراك في الافعال المنعكسة الطبيعيَّة .

واما الانفعال فيشارك الانسان فيهِ بعض الحيوان فيبلغ اشدَّهُ في الانسان ثم يقلُّ شيئًا فشيئًا في الحيوان بحسب انحطاط ادراكهِ عن ادراك الانسان . وعلى ذلك فالرُّتب الدنيا من الحيوان تتأثر من الشيء المخيف فتجتنبهُ بفعلٍ منعكس مجرَّدٍ دون ان تشعر بالخوف والرتب التي فوقها تجتنب المخيف بفعلٍ منعكسٍ ايضًا ولكنها تشعر بالخوف شعورًا يتزايد فيها بقدر تساميها في سلَّم الحيوانيَّة حتى يبلغ غايتهُ في الانسان رأس المخلوقات

ومع ان الرتب العليا من البهائم لا تخلو من الشعور بالخوف فالظاهر انها لا تدرك سبب ذلك الخوف فالدجاجة تخاف الثعلب وربما شعرت بخوفها هذا . ولكنها تخافهُ بالسليقة لا لعلمها بانهُ يفترسها . والفرس يخاف صوت الرعد ويشعر بخوفهِ ولكنهُ لا يخافهُ لعلمهِ ان الصواعق تقتلهُ وقِسْ عليهِ سائر البهائم لقصور عقلها بخلاف الانسان فانهُ لسعة عقلهِ يدرك سبب خوفهِ كما يشعر بالانفعال الحاصل منهُ

وتأثير الخوف في الناس والبهائم مختلفٌ فيزيد البعض قوَّةً وسرعةً ويذهب بقوَّة الآخرين وحركتهم وعليهِ قال بعضهم ان الخوف قد يكون جناحين على المخلَّين وقد يكون قيدَين عليها . فربَّ اثنين مترافقين يفترقهما اللصوص في مسيرها فيشتدُّ كعبا احدهما فيفرُّ فرار الظبي ويقذف بنفسهِ عن الكواهق ويثبُ فوق العوارض ويقتحم ما ينكصُ عن الوقوف امامهُ حال اطمئنانهِ وهدوّ روعهِ . وتخلُّ عزائم الآخر وترتخي مفاصلهُ وتخور قواهُ ويرتبط لسانهُ فلا يستطيع حراكًا ولا ينوءُ ببنت شفةٍ . فيكون الخوف في الاوَّل سببًا لنجاتهِ وفي الثاني سببًا لهلاكهِ . ولا يحصر هذا التأثير في البشر بل يعمُّ سائر الحيوان ايضًا كما في الظباء والارانب التي تطاردها كلاب الصيد والطيور والبهائم والزحافات التي تسطو عليها الجوارح والكواسر على انواعها . وانحلال عزائم الحيوان خوفًا يضرُّ بعضًا منهُ ويفيد بعضًا فان من الحيوان ما يفيدهُ التماوت وتمام السكون للنجاة من عدوّهِ كما يفيد غيرهُ الفرارُ من مخالب مفترسهِ . فبعض الحشرات اذا وُخِزَت انقطعت عن الحركة وبدت عليها علامات الموت فتتماوت لطلب النجاة ولا موت بها . وقد تنجو الطرائد اذا انقطعت عن الحركة وحاكت الجماد في سكونها ولا سيَّما اذا كان لونها كلونهِ كما في الحجل ونحوهِ من انواع الطير

والسبب في اختلاف تأثير الخوف في الناس والبهائم هو حال الجهاز العصبي فيهم فقد اثبت الشهير برون سيكارد انهُ اذا أثَّر مؤثر خارجي في الجهاز العصبي فإمَّا ان يهيِّجهُ ويزيدهُ نشاطًا وإمَّا ان يصرعهُ ويذهب بقوتهِ ويبطل عملهُ . والخوف ممَّا يؤثر في الجهاز العصبي هذين التأثيرين والغالب انهُ اذا اشتدَّ جدًّا على الانسان صرعهُ وذهب بحركتهِ ونشاطهِ واذا كان دون ذلك

شدّةً زاد الانسان نشاطاً وقوّةً

قلنا ان الفعل المنعكس العقلي لا يكون بقدر قوة المؤثرات الخارجية فطنين الرصاص مثلاً يبعث الجندي على الانحناء حال كون المؤثرات التي هي اقوى منهُ كالاصوات الشديدة لا تؤثر فيهِ شيئاً من ذلك . ونقول الآن ان هذا الفعل يتوقف بالاكثر على حال الانسان وقبولهِ للتاثر . وعليهِ فشدّة الخوف في الناس لا تتوقف على ما يؤثر الخوف فيهم بل على بنيتهم وقبولهم للتاثر والانفعال . ومعلوم ان قبول الناس للتأثر والانفعال متفاوت فلذلك يتفاوتون في الخوف ايضاً . فالذين ينفعلون قليلاً يكونون من ذوي الشجاعة بالطبع والذين ينفعلون شديداً يكونون من الجبناء بالطبع . ولهذا كان الاطفال والنساء اجبن من الرجال طبعاً وكان ذوو المزاج العصبي اجبنَ من ذوي المزاج البلغمي طبعاً . وكان بعض البهائم اجبن من بعض ايضاً

فالشجاعة تكون طبيعيّةً في بعض الناس والجبانة طبيعيّةً في غيرهم . وانت تعلم ان ما كان فطريًّا لا يعتبر فضيلةً ولا رذيلةً فلا فضل لمن فُطِر على الشجاعة ولا عار على من فُطر على الجبانة كما انهُ لا فضل للجميل على جمال صورتهِ ولا عيب على القبيح لقبحها . واما الشجاعة المعدودة من الفضائل فينبغي ان تكون شجاعةً يكتسبها الانسان بالجهد والسعي لها في طريقها وسياتي معنا ان الشجاعة لها نوعان آخران . ولكنّ الغالب في اعتبار الناس ان يعدّوا كل شجاعةٍ فضيلةً ويعتبروها نقيض الخوف فالشجاعة والخوف عندهم لا يجتمعان في شخصٍ واحدٍ ولذلك يمدحون الجريَّ ويذمّون الهيوب . وهذا ظلمٌ والصحيح ان الشجاعة والخوف غير متناقضين لزومًا فربَّ امرأةٍ عصبيّة المزاج تكون من اشجع النساء واثبتهنَّ جنانًا وهي مع ذلك لا تنالك عن الاجفال والارتعاد والخوف الشديد لعوارض لا يبالي بها غيرها اذ هي بالفطرة شديدة الانفعال ولا قدرة لها على تغيير فطرتها . فيجب قبل الحكم بتناقض الخوف والشجاعة ان يميّز بين الامرين اللذين يتضمنهما الخوف وهما الانفعال الذي بهِ الشعور بالخوف والافعال المنعكسة التي بها اعراض الخوف . وهذه الافعال المنعكسة بعضها مستقلٌ عن الارادة كخفوق القلب واصفرار الوجنتين وارتعاد الفرائص ونحوها من الافعال الآليّة وبعضها خاضع للارادة كتوقيف حركة الرجلين عن الفرار وامساك الصوت عن الصراخ ونحوها . فلننظر في ذينك الامرين لنرى اين يصحّ ان يسمّى المخاوف شجاعًا او جبانًا . واولاً في الانفعال

اذا عرض للنفس ما تخافهُ تأثرت وانفعلت انفعالاً مخصوصًا لا يسكنهُ العقل ولا تجدهُ الارادة . ألا ترى ان بعض الناس يسمو علمًا وادراكًا ولا يجترئ ان يُقدم على تأديب الطفل الصغير . فقد ذكر ان بعض من اشتهر بالعقل والذكاء لم يكن يجترئ على النزول في قارب مع

تحققهِ سكون البحر واتساع القارب وبراعة الملّاحين وقصر الامد . وما ذلك الّا لضعف الدليل والبرهان عن اخماد انفعالهِ واسكان روعهِ . وقد يبلغ الانفعال ببعض الناس مبلغًا لا ينقاد فيهِ لدليل ولا يقبل اقناعًا . والارادة ننسها لا حكم لها عليهِ فمحاولة اسكانهِ بعقد النية على ذلك عبثٌ . ولعلّ العادة احسن علاج لهُ عند ضعف الارادة فان مَنْ يعتاد امرًا لم يَخَفهُ ولو كان من اشدّ الناس خوفًا . فقد حكى بعضهم انهُ كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويجعل نفسهُ على الخاطر العظيم بالتعرّض لها ويركب البحر عند اضطرابهِ وهيجانهِ ليعوّد نفسهُ الثبات في الخاوف . وعلى ذلك ترى اهل الصناعات من اشجع الناس في صناعاتهم كالبحري في ليلة العواصف والانواء فانهُ يثبت فيها طيّب النفس قوي الجنان حيث ينزع الابطال وترتعد فرائص الجبابرة ؛ وكالاطباء والممرّضات في الاوبئة والامراض المعدية . والكيماويين والصيادلة في معاملة العقاقير السامة والمواد المؤذية . وركّاب المراكب الهوائية في اختراقهم الجوّ وركوبهِ طبقًا عن طبق . ومصارعي الوحوش ومتسلقي الشواهق والاحادير والعاملين في معامل البارود فقد رُوي عنهم انهم لطول معاطاتهم البارود يألفونهُ فلا يخافون شرّهُ فيضرمون النار بجانبهِ ويدخنون التبغ حولهُ ولا يمتنعون عن مثل ذلك الّا كرهًا مع علمهم بما فيهِ من الخطر والهول العظيم . فبالعادة يزول الخوف من اهل الصنائع والحرف فيقدمون على ما بهِ الموت والخطر العظيم بقلوبٍ آمنة وشجاعةٍ يُضرب بها المثل . فهذه شجاعةٌ مكتسبة بالعادة وائتلاف الخاوف فكأنّ تعوّدها قد صار في الانسان طبعًا فصيّرهُ شجاعًا

الّا ان هذه الشجاعة تكون محصورة في امرٍ واحدٍ او امور قليلة فالبحري الذي لا يخاف هيجان البحر ونزول الانواء ربّما خاف لقاء اقلّ الوحوش قوّةً بعكس مصارع الوحوش . فان العادة تقلّل انفعالهُ بمؤثرات معيّنة وليس بكل المؤثرات فيبقى عرضة للانفعال بمؤثرات أخرى . وكثيرًا ما يكون الشجعان طبعًا كذلك فان منهم من يتأثر ببعض المؤثرات ولا يتأثر بغيرها . بل ان الانسان الواحد قد تختلف حالهُ في الخوف وعدمهِ باختلاف حالهِ في الصحة والمرض والجوع والشبع والحر والبرد الى غير ذلك من العوارض . والامثلة على كل ذلك كثيرة . فقد قيل ان قائدًا من اشجع قوّاد اوربا لم يجسر في زمانهِ ان ينفض ذبالة السراج باصبعهِ خوفًا من احتراق اصبعهِ وكان يلقى الابطال ويقتحم المعارك بقلبٍ لا يهاب الموت . وحكي ان آخر كان لا يرى سحابة راعدة الّا هلع قلبهُ خوفًا من ان يصعق اصواعقها ولمّا حان اجلهُ الذي الموت بأسًا مسرورًا . وان آخر كان لا يرى الدم الّا اعتراهُ الاغماء فلما حضرتهُ المنيّة تلقّاها غير خائف . وان آخر خاض مخاوف البحر والبر ولم يبالِ بها ولكنهُ لم يجترئ ان يقيم وحدهُ في الظلام ساعةً من الزمان . والبعض

يخاف الماء دون غيره وآخر الجبال دون غيرها وآخر السموم وآخر الافاعي الى غير ذلك مما يطول استقراؤه . وكل انسان يعلم من نفسه ان الخوف يشتد عليه منعمًا او جائعًا حين لا يشتد مرتاحًا او شبعان الى غير ذلك مما يثبت تفاوت انفعاله باختلاف احواله

ومما يزيد انفعال الخوف شدةً قوةُ التخيُّل والانتباه في الانسان فقوة التخيُّل تلبس الصور البسيطة على العقل حتى تجعلها في غاية التخويف والارهاب كما يحدث كثيرًا للاطفال ومَن قويت فيه المخيِّلة . فالطفل يرى الورقة البيضاء ليلاً فتريه اياها المخيِّلة شبحًا ابيض قائمًا من القبر ملتفًا باكفانه فيخافها خوفًا شديدًا وما هي الاَّ ورقةٌ لم يكن يعبأ بها لو لم يوهمه الخيال . ولما كانت القوة المخيِّلة من الاسباب التي تزيد الانسان خوفًا فضعفها قد يكون سببًا لتقليل الخوف وعليه فكثيرون يعدُّون شجعانًا لضعف المخيِّلة فيهم . ولا ندري أيُّهما افضل أالشجاعة المذكورة أم القوة المخيِّلة فكلٌّ منهما تفيد في بابها فوائد لا يستغنى عنها

واذا اقترن التخيُّل بالانتباه اشتدَّ الخوف في الانسان كثيرًا لان شأن الانتباه الى امر توضيح صورته في النفس وترسيخ اثره في الذهن واظهاره للعقل أبين اظهار حتى يرى الامر الصغير الحقير كبيرًا خطيرًا . انظر الى رجل قمت تشكُّه بشوكة كيف يخاف ألمها ويحذر شكها كأنها سنان رمح في يد مطاعن ولو شككتَه بها على غير انتباه منه اليها لما باليٰ بل ربما لم يشعر لها بألم . فالذي خوَّفه منها هو توجيه انتباهه اليها . وكذلك من يتوقع حدوث مكروه ويتأهَّب للاقائه فطول انتظاره لحلوله يزيدهُ خوفًا على خوفٍ حتى لقد يفضي ذلك الى موته توهُّمًا . قيل ان رجلاً قُضي عليه بالموت لجريمة ارتكبها فسلمه الحاكم الى بعض الاطباء ليمتحنوا تأثير الخوف فيه على شرط ان يُطلَق سبيله اذا سَلِم . فاوثقوهُ وعصبوا عينيه وجعلوا يتكلمون في امانته بانزاف دمه فصدَّقوا . فربطوا عضدهُ واخذوا يقطرون عليه ماء فاترًا ليوهموهُ بنزف دمه . وكانوا يقولون كلَّ هنيهة انظروا ما اشدَّ اصفرار وجهه وما اضعف نبضه فقد دنا اجله . فصدَّق كلامهم ولتوقعه الموت اشتدَّ خوفه فيه حتى بطل عمل قلبه فمات بغتة وارتعد جسدهُ وسال العرق منه وماتَ خوفًا دون ان تراق قطرةٌ من دمه . وقيل ايضًا انه حُكِم على جندي بالقتل فعصبوا عينيه واركعوهُ واطلقوا عليه بنادق ليس فيها رصاص فوقع ميتًا وانما مات من الخوف لتوقعه الموت وتوهم اطلاق الرصاص عليه . فالانتباه والتخيُّل قوتان مهيجتان لانفعال الخوف فتجعلان قليل الخوف شديدهُ . اما التخيُّل فغير خاضع للارادة واما الانتباه فخاضع لها ولكن اذا هاجت الانفعالات هيجانًا شديدًا واشتدَّت افعال المخيِّلة فتقوى على الانتباه ولا يقوى عليها ولذلك لا نستطيع النفس ان تحوله الى جهة أخرى ولا نقدر على اخماد الانفعال الحاصل من الخوف

والخلاصة مما تقدّم ان انفعال الخوف في النفس غير خاضع للارادة بل مستقلٌّ عنها فيحدث ابتداء عند حصول ما يُحدِثهُ. وهو متفاوت في الناس بحسب فطرتهم وعوائدهم كما تقدم. ولمّا لم يكن للانسان طاقة على احداثهِ واسكانهِ فيهِ فلم يكن من العدل ذمهُ عليهِ او مدحهُ على عدمهِ ولا ان يعدّ القليل الانفعال شجاعًا والشديد الانفعال جبانًا باعتبار ان الشجاعة فضيلةٌ والجبن رذيلةٌ

وبعد الانفعال الافعال المنعكسة. وهذه قد قلنا ان الارادة تسلّط على بعضها ولا تسلط على البعض الآخر فالتي لا تتسلط عليها تشبه في حكمها الانفعال الحاصل في النفس من توقُّع المكروه كخفقان القلب مثلاً واصفرار الوجه وانتصاب الشعر وارتعاد الفرائص. وهذه لا تنافي الشجاعة ولا تُعَدُّ في الانسان من دلائل الجبن والناس يتفاوتون فيها كما يتفاوتون في الانفعال. واما التي تتسلط الارادة عليها فهي طوع امر الانسان والشجاعة الحقيقية تعتبر في تسلُّطهِ عليها والجبانة في تغلبها عليهِ وخلع سلطانهِ عنها

فهنا سرّ الشجاعة والجبانة. فالشجاع الذي تُعَدُّ شجاعتهُ فضيلة هو من قويت ارادتهُ واشتدّت عزيمتهُ فصار اذا وقف في موقف الخوف ينظر الى ما هو واجب او ما هو محمود مثلاً فيثبت من اجلهِ حتى اذا همّت الرِّجلان بالفرار ازمتها ارادتهُ بالثبات واذا همّت اليدان بالارتخاء شدّدتهما على الاحتمال واذا حاول الجسم الانحناء من طريق المخاوف اكرهتهُ الارادة على الانتصاب واللقاء. فالشجاعة قائمة بتغلُّب الارادة على الافعال المنعكسة التي يحدثها الخوف والجبانة قائمة بتغلب تلك الافعال المنعكسة على الارادة

واذا قيل فكيف تتغلب الارادة على تلك الافعال قلنا بتغليبها انفعالاً على انفعال فمتى هاج انفعال في النفس قاومتهُ بانفعال آخر ضدّهُ. وعليهِ متى هاج الخوف في صدر الجندي مثلاً كان باعثًا لهُ على الفرار ولكن الارادة تصدُّهُ عن ذلك باختيارها باعثًا آخر ضدّهُ مثل مراعاة الواجب او حب الوطن او رعاية الصيت والمروءة او حب الشرف او الرغبة في الثواب او الحذر من العقاب او غير ذلك من البواعث التي تهيج في النفس انفعالات مضادة لانفعال الخوف فتحملهُ بذلك على الثبات حين يدفعهُ الخوف الى الفرار

فيتضح مما تقدم ان الشجاعة التي يجد الانسان عليها انما تحصل من حكم ارادتهِ على بعض الافعال المنعكسة الحادثة مع الخوف وهذا الحكم لا ينافي تأثر الانسان من الخوف وانفعالهِ بهِ ولا اضطراب احشائهِ وتغير حالها. بل قد يكون الانسان من اشجع الابطال ويلقى الموت باسمًا ونفسهُ مع ذلك تجيش وقلبهُ يخفق وفرائصهُ ترتعد وركبتاهُ تصطكّان. ويوافق ذلك قول الشاعر

اقول لها اذا جشأت وجاشت مكانكِ تحمدي او تستريحي

فجشأ النفس وجيشها دليل انفعال الخوف والافعال المنعكسة الآلية التي لا تسلُّط للارادة عليها . وقوله "مكانك تحمدي او تستريحي" دليل الثبات وتغلب الارادة على الافعال المنعكسة غير الآليّة باهاجتها في النفس حب الحمد او الراحة واختيارها كلاً من هذين الباعثين والعمل به ورفضها الخوف وما يبعث عليه من الفرار . وهذا هو عين الشجاعة وعنوان الفضيلة . ولو غلبه جشأ النفس وجيشها فنكص عن اللقاء وفرّ من ساحة القتال لكان جبانًا لا يستحق المدح ان لم يستحق الملامة

فالشجاعة ثلثة انواع شجاعة طبيعية تكون في من قلّ تأثرهُ وضعف انفعاله من المخاوف . وشجاعة مكتسبة تحصل في الانسان من تعوّدهِ المخاطر واستئناسهِ بالموحشات فلا يؤثر فيهِ خوفها وشجاعة حقيقية اوادبية تكون في من يخاف ولكن يتغلب على خوفهِ بقوة ارادتهِ وشدة عزمهِ . والثالثة هي المعتبرة عند الخاصة من الفضائل والمفضلة عندهم على ما سواها . وعليهِ فاحسن علاج للجبن تعوّد المخاطر والاهوال وتربية الانسان على حب الفضائل وكره الرذائل وتقوية ارادتهِ حتى يقدم على ممارسة الأولى واجتناب الثانية .

وكنّا نودّ ان نستوفي البحث عن الانفعالات المشبهة بالخوف وعن فوائدهِ في الوقاية من المهالك والمخاطر . وعن اسبابهِ والاحوال المقوية له مثل الجهل بالامور والوحدة والظلام وغيرها ولكن الكلام على ذلك يطول والمقام ضيق فحسبنا ما تقدم

السرطان الناسك

من يدرس طبائع الحيوان ويراقب الاطوار التي يتقلّب عليها والصور التي يتقمّص فيها والحيَل التي يستخدمها لنوال معيشتهِ وتكثير نوعهِ والدفاع عن نفسهِ يقف وقفة المندهش ويهتف مع صاحب الزبور قائلاً ما اعجب اعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت . هذا السرطان الناسك يخلق قادرًا على السباحة لابسًا درعًا تقيهِ هجمات الاعداء ثم لا يمضي عليهِ زمن طويل حتى تقصر رجلاهُ ويضعف عن السباحة وترقّ القشرة التي على مؤخر بدنهِ فلا تعود ترداً عنهُ ضيًّا فيسعى لنفسهِ والسعي مشكور حتى في الحيوان الاعجم ويلجأ الى صدفة من صدف الحلزون فيقتضي فيها بقيّة حياتهِ كما ترى في الشكل الذي على الوجه التالي

ويظهر مما بيّنهُ العلّامة اغاسز ان هذا السرطان يقصد الاصداف المهجورة والمسكونة على حدٍّ سوى . قال انهُ ربّى بعضها الى ان بلغت زمان احتياجها الى الاصداف فطرح لها اصدافًا